قصة الشهر

رجل الدرّج

بقلم ولفريد وولف

ترجمة شفيق الفقيه

ما ان اقبل خميس هذا الاسبوع بالذات حتى كان قد اصابها من الإجهاد ما جعلها تذهب الى وكيل اعمالها لتقول لـــه : « يجب ان اترك نيويورك ، فأنا مضطرة الى ذلك » .

فأجابها– ابقي حيث انت الى نهاية الاسبوع، وسأرى ماذا استطيع ان اعمل من اجلك .

– لن اعود الى المربع ، فقد تركته ...

فقاطعها « لو » بحدة :

– آه ، هـــذا بديع منك قبل موعد العطلة ، اسمعي يا « للي » ...

– قلت لهم انني مريضة .

– ولكنك لا تبدين مريضة الى هذا الحــد، يا « للي » .

فأجابته ودموعها تكاد تطفر من عينيها :

– اكاد اموت .

– للي ، ماذا اصابك ، قولي الحقيقة ؟

– علي ان اترك المدينة ، اربطني بعمل في اي مكان بعيد ، في بوسطن ، او ميامي او منتريال.

– للي ،عسى الا تكون مشاكلك مع البوليس.

وأجابته للي بكل رصانة :

– كنت اتمنى لو كانت كذلك !

– السبب رجل إذن ؟

وسحبت « للي» منديلا من محفظتها وأجابت :

– انني خائفة ، بل يجب ان اكون كذلك ، لإنني لا ابكي عـــادة إلا عندما اخاف . فماذا بامكانك ان تفعل لي يا « لو» ؟

– وماذا يريد بك الرجل ؟

فأجابت بكل بساطة :

– يريد ان يقتلني ، هذا كل ما في الأمر ، يريد ان يقتلني ، وافضـــل ان لا اقول شيئاً غير ذلك .

– ربما كان عليك ان تخبري البوليس ؛

– ليس عندي لهم ما اقوله حتى الآن ، ومتى عرفت ذلك ، يكون الوقت قد فات ...

فتح « لو » دفتراً كان على مكتبه امامه ، وتأمل اوراقه ثم قال :

– انت تتذكرين « شاميك » في بوسطن . استطيع ان اجد لك عملا هناك لمـــدة خمسة عشر يوماً .

– شكراً يا « لو » . انك لطيف ، وسأذهب هذا المساء بالذات .

– لحظة من فضلك ، ولكنك لن تبتدئي العمل قبل الثامنة من مساء الإثنين .

– سأنزل إذن في فندق ، وهذا يكفي الآن ، هذا يكفي .

– لقد كانوا يريدون هناك مغنية جيـــدة ، ولكنني سأتدبر الأمر ، سأقول لهم انه سبق لك ان لعبت باتقان دوراً أولياً .

وحين خرجت « للي » رافقها الوكيل حتى المصعد ، ثم سألها :

– الا تريدين ان تخبريني الحقيقة كما هي ؟

فهزت رأسها وقالت :

– ستتهمني بالجنون لو فعلت ذلك .

ثم نقلها المصعد الكهربائي ، وكانت تفكر : «كم هي صاخبة هذه المدينة، وواسعة، وجميلة . ولئن تركته يقتلني ، فلن اراها بعد ذلك ابداً : امي ! امي ! اني اخاف ان يقتلني . » ثم حدثت نفسها بان من المضحك ان تستنجـــد بامها كلما شعرت بالخوف ، وهي التي تكاد لا تتذكر امها .

وأسرت لنفسها : « سأستعيد الآن ذكرى كل شيء ، تماماً كما حدث لي ... منذ البدء ، فربما كنت اجعل من اللاشيء جبلا : في الفصل الأول كانت مقابلتي للشبح . الشبح ، او « اللحية الزرقاء » كما كنت اسميه من وقت الى آخر . كانت بهيمة ضخمة ، مكسوة بالشعر ، يسكن في الغرفة التي تعلو غرفتي . وفي معظم الأيام كنا نتقابل على الدرج ، كانت نظراتـــه تخترقني ، فأشعر آنذاك وكأني قد اصبت بعين شريرة . ليس في وسعنا ان نشرح دائماً كيف نخاف ، ولماذا نشفق في النهاية على من كان سبب خوفنا .

انني إتذكر كلباً ما ، غريباً ، لم يكن يخص احداً من الناس . كان ذلك في قريتي الأولى . الجميع كانوا يرهبونه ويبغضونه . وقد رمى اليه اللحام يوما بقطعة من اللحم ، فدهش الكلب لهذا الحدث الفريد ، ولكنه تقدم مع ذلك من القطعة واكلها . كانت تحمل من السم ما يكفي لقتل ثور . وهكذا ارتمى الكلب على الرصيف، وقد شبع موتاً . فاقتربت منه ، وما كنت لأجسر على ذلك عندما كان حياً . لم تكن تبدو عليه اية غرابة ، كان فقط على شيء من الحزن والوحدانية.

واتذكر ايضا دخولي الى بيتي ، وبكائي ، وما كان ابلهني ! كنت حقاً بلهـــاء . وفي هذه الوجهة ابدو قريبة الشبه « بالشبح » او « اللحية الزرقاء » . كان قد غاب عن عيني مدة طويلة ، فافتقدته فجأة ، كما تفتقد انت خرير ماء يندفع من سكر ، او قرقرة في خزان ، فلا تشعر بانك كنت قد اعتدت عـــلى سماع صوتها الدائم ، إلا عندما ينقطعـــان عنك ، فتتنبه الى ذلك فجأة . وهذا كثيراً ما يحدث لكل من تسيطر عليه بعض الأوهام .

سألت صاحبة البيت « السيـــدة كيفر » عن الرجل ، وماذا حدث « للحية الزرقاء » كما كنت القبه . وهل انتقل الى بيت آخر ، انني لم اره طوال اسبوع،ولهذا فقط اسأل عنه يا سيدة كيفر .

وكانت صاحبـــة البيت تقلب الرسائل ، في صندوق البريد البيتي ، على الطاولة الكبيرة امامها عند المدخل . فأجابتني :

– السيد كير بي مريض .

وعندئذ تناولت منها رسائلي ، ولم يكن بينها شيء هام ، فقط فاتورة حساب فسطان الرقص

الجديد . ثم قلت :

—السيد كير بي رجل غريب الأطوار ، مضحك .

— ما دام يدفع بدل الإيجار في حينه ، فلا استطيع ان اجبره على اخلاء الشقة .

هذا ما قالته السيدة كيفر . وكانت هذه اول مرة الاحظ فيها انها لم تكن تحبه مطلقاً . وقد تابعت حديثها قائلة :

—كل ما اتمناه ان لا يفكر بان يموت في بيتي ...

— وهل هو مريض الى هذه الدرجة ؟

— نعم ، امس طرقت بابه ، واعطيته بريده ، ولم اجلس طويلا لأتفحصه جيداً ، ولكنني وجدته في سريره ، في حالة يرثى لها .

وكان غريباً مني ان اسألها :

— ما الذي يعمله إذ يريد ان يأكل ، وهو وحده فوق ؟ انه مجرد سؤال .

فأجابتني مسز كيفر :

—كنت افكر بان اصعد اليه بشيء من الطعام ، ولكني سأتنبه ، قبل ان افعل ، بان اضع له فيه بعض السم .

فتذكرت في هذه اللحظة بالذات ذلك الكلب المسكين ، وتمنيت لو تقدمت منها وصفعتها بيدي . لا ، لست اعلم لماذا ، ولكن مثل هذا الكلام يصدر عنها ، كاد يدفعني الى قصفها باقبح ما هنالك من الفاظ لا سيما وان هناك شخصاً مريضاً يتألم .

وقد بدأ السعال بعد ذلك بيومين ، عميقاً وموجعا ؛ وكنت احسه خارجاً من بعض زوايا غرفتي أنا ، لا من غرفته .

وبعد ظهر اليوم التالي ، افقت على سعاله ، وكنت قد عدت الى غرفتي قبل الخامسة صباحاً بقليل ، في شبه غيبوبة ، من الاعياء . والآن ، وأنا نصف نائمة ، اكاد اقسم انني احسه نائماً معي وهو يسعل . اي شعور هو ، ان احسه راقداً في فراشي . إن هذا ما جعلني انهض اخيراً وأرهف سمعي ثم افكر : « لو كنت مثلا انا المريضة ، فهل كانت مسز كيفر او غيرها يعتني بأمري ، ويكلف نفسه بان يصنع لي شيأ ؟

وفي اقل من نصف ساعة ، كنت امر في الممشى لأطرق بابه ، وأخيراً عندما توقف عن السعال سمعته يسأل :

— من هناك ؟

— « لي فراي » .

ثم عرفت حالا ان اسمي لا يعني شيئاً عنده ، فزدت عليه :

— جارتك التي تسكن تحت .

— ادخلي .

كانت الغرفة واسعة ، ومقطوعة . وكان على نافذتها ستار مسدل . وقد اصطدمت قدمي ، وأنا داخلة ، بشيء ذهب يتدحرج على الأرض ، كان رأساً صغيراً لدمية مدهونة بالألوان .

لقد كانت السيدة كيفر على حق عندما ذكرت لي ان حالته سيئة جداً . فلقد سبق لي ان رأيت « خيالات » بشرية احسن منه حالاً .

واستوى اخيراً في سريره متكئاً على مرفقه . وفي هذه اللحظة بالذات كان علي ان اهرب من الغرفة . بان ادور نصف دورة على نفسي ، وأخطو عدة خطوات نحو الباب ثم اقفله دوني .

لقد عرفته جيداً ، واعتقد انني كنت اعرفه قبل الآن . وبدأت اشعر بوحشة غريبة ، اكاد اكون في حلم ، وقد غطست بالوحل الى الركبتين ، وأخذ جسمي يغوص فيه اكثر فأكثر ، دون ان استطيع الى الصراخ سبيلا ، مع ان نجاتي كانت رهن ذلك الأستنجاد .

وأذكر ايضاً ، انني لو تمكنت ، على الأقل ، من ان احرك رجلي ، وأخلص نفسي لكان جرى كل شيء على ما يرام ، ولكنت خرجت من غرفته قبل ان يوجه إلي اية كلمة . هذا ما فكرت فيه ، ولكنه تحدث اخيراً قبل ان افعل شيئاً من ذلك :

— وماذا تبغين هنا يا آنسة « لي » ؟

هكذا كانت بدايتي معه ، وهذا ما حدث لي عنده ، فأجبته وأنا ابلع بريقي :

— السيدة كيفر اخبرتني بانك مريض ، فقلت في نفسي ربما كنت في حاجة الى ان اصنع لك شيئاً تأكله .

فبدا عليه وكأنه لا يصدق ما يسمع ، ثم استلقى على ظهره اخيراً واطبق عينيه وهو يقول :

— شكراً . انت فتاة طيبة .

وفي الحال ذهب عني خوفي منه . وتساءلت كيف حدث لي ان خفت منه قبل ذلك ، بل كيف سمحت لنفسي بان اخاف . ورفعت الستار عن النافذة لأترك اشعة الشمس تدخل الغرفة . كانت هذه فظيعة الشكل ، يغطيها الغبار وتكثر فيها قطع الثياب الممزقة ، والحناجر المزروعة بالعديد من الريشات . وحيث كنت انظر ، كان هناك وجوه دمى في لون الورد ، ذات عيون واسعة زرقاء اللون ، وافواه حمراء تبتسم .

قال لي وهو يتأملني :

— هكذا اكسب عيشي . اصنع لهذه الدمى وجوهاً وأعيدها ملونة الى المصنع ، حيث يعطونها الاجساد اللازمة .

وأخذت رأس دمية ، وقلبته بين يدي . لست أعلم ماذا دفعني الى ذلك ، ثم قلت للمريض :

— ليس عندي في غرفتي اية دمية .

وأعددت له « الحساء » والبيض المسلوق ، وقليلا من الخبز المحمص ، ثم الشاي في الوقت الذي كان يأكل فيه . وأجهدت نفسي في تهيئة الغرفة . واخيراً قلت له ، بينما كنت ارفع عن الأرض حناجر الدهان لأضعها على الرف في المكان المعد لها :

— انت اول فنان اتعرف عليه .

— لست فناناً ، انما ادهن فقط وجوه الدمى بالألوان .

— ماذا تقصد ؟

— اقصد ان عملي هذا ليس من الفن في شيء .

فهززت كتفي وقلت :

— انا مثلا لا استطيع ان افعل شيئاً من هذا ، ولا اقدر ان اقيم خطاً مستقيماً واحداً .

لست اعلم كم وجد حديثي هذا مبتذلا ، ولكنه اكتفى بالإبتسام . واظنه شعر بتحسن بعد ان اخذ كفايته من الطعام ، ولعل هذه البسمة كانت نتيجة شبعه . ولا اذكر تماماً عم تحدثنا في ذلك اليوم ، ولكنه كان يسعى بان يجعل الحديث سهلا وبسيطاً .

وفي الاسبوع التالي كنت قد اعتدت على اعماله البيتية ، كتهيئة طعامه مثلا . وبعد يومين اخذت انا ايضاً اتناول طعامي عنده . كان دائماً يجلس على سريره والطبق على ركبتيه . وكنت دائماً اقترب بطاولة اعمالي منه حتى استطيع ان اهزل معه وأنا اعمل . واعتقد انني كنت سعيدة ، اسعد مني في اي وقت مضى . ولست لأبالغ في هذا . لقد كان يعرف كيف يحدثني عن نفسي بما لم اكن اعرفه عن نفسي . وكان يظهر عليه دائماً انه مهتم بي . وقد قلت له مرة :

— انت تحرص على ان يكون لك بعض ما يميزك عن غيرك .

ثم اخذت احدث نفسي ، ان احداً غيره لم يكن ليهتم بي . وعجبت كيف فكرت ايضاً بانه قد لا يكون بشعاً من غير لحية . وحدثته بذلك . فحك خده الأيسر وقال :

— في خدي جرح كبير ، وهذه اللحية تخفيه عن الأعين .

وإذن ، فالمسألة خاصة . وهكذا لم اعد الى حديث اللحية مطلقاً .

وبعد ظهر احد الأيام تخطيت السلم وطرقت

بابه بعجلة . فلم اتلق اي جواب . فخطر لي في الحال انه ربما شعر بتحسن ، فرأى من الأفضل ان يترك غرفته قليلا. وقلت في نفسي « لا بأس ، صفحة اخرى تطوى » غير اني لم اكن مصيبة في حدسي ، ففي المساء ، عندما ظهرت على المسرح في المربع الذي اعمل فيه ، رأيته يجلس الى طاولة قريبة . كيف لي ان اشرح ماذا اصابني عندئذ ؟ لست اعلم . لاول مرة اشعر بخجلي من هـذا الدور الذي اقوم به ، بينما كنت اظنه حسناً قبل ذلك ، لانه كان يرضي المخرجين هناك . اما في ذلك المساء بالذات ، تحت نظره ، فقد بدا لي مبتذلا ، ولست اعلم لماذا ... وما كدت انتهي منه حتى اسرعت الى صاحبي وسألته بشيء من الخوف :

– ما رأيك فيه ؟!

– كنت مدهشة .

– آه ، صحيح ؟

ثم انتابني في الحال بعض الإرتخاء ، فجلست.

– انني احمل لك هدية .

قال ذلك وفتح علبة كبيرة وأخرج منهـا « دميـة » . فتنهدت بقوة . كان لهـا شعر ناعم مذهب ، وعليها رداء من المخمل الاسود ، فوقه شال من الفرو الحقيقي . ولكن الوجه ، وجه الدمية ! سألته عنه فقال لي انه وجهي انا. فأجبته :

– كفى مزاحاً ، انني ابعد من ان احمل مثل هذا الجمال في وجهي .

وما عدا ذلك ، فقد خفت منه . لقد اخافني مديحه لي .

وكثيراً ما رأتنا السيدة كيفر نخرج معاً ، لا سيما في نزهات الاحد الصباحية . وقد استفردتني مرة في الممشى ، فقالت لي :

– لوكنت مكانك ، لعرفت ان اختـار اصدقائي خيراً منك يا آنسة .

ففكرت بانها ليست مسؤولة عني ، وقلت لها :

– لا اعتقد انني سأكلفك يوماً بان تختاري لي اصدقائي يا سيدتي . واعلمي فوق ذلك ، ان السيد كيربي رجل مهذب .

وسأصارح نفسي ، كما تهيأ لي ، بان السبب الأول لدفاعي عنه بمثل هذه الحدة ، انني كنت خجلة من نفسي ، لانني حدث لي ان خفت منه في البداية. وكنت القبه باللحية الزرقاء او الشبح امام السيدة كيفر بالذات .

وبعـد ذلك باسبوعين ، لا اكثر ، عرفت قصة « النحس » الذي يحمله كيربي . عرفتها صباح يوم الأحد ، عند عودتنا من النزهة . كان كيربي يحمـل دفتر رسمه ، لينقل عليه بعض المناظر ، ولقد دخلنا غرفته ، وهيأت القهوة طبعاً ، ثم قلت له :

– وأخيراً الا تريد ان ترسمني ؟ تكلم .

وضعت الكوب على الطاولة وملأت السكرية ثم ابريق الحليب ، وبعد كل هذا تنبهت الى انه لم يجبني بشيء على سؤالي ، فتابعت حديثي :

– المسألة جدية ، وسأبقى هادئة امامك ، ولن أدعك تشعر بانني اتنفس .

فاجابني مطرقاً :

– لقد رسمتك على الدمية .

– لا ، انني اطلب منك الآن لوحة حقيقية ، لوحة سأشتري لها « اطاراً » جميلا ، وسأعلقها في غرفتي انا .

ولاحظت بدقة ، هذه المرة ، كم طـال صمته . فندمت في الحال على ما كنت قد طلبته منه وقلت له فوراً :

– يجب الا تحسب هذا سوء تصرف مني ، من اكون انا حتى اطلب منك ماطلب ؟ لا ، لست « موناليزا » او غيرهـا من الشهيرات ، حتى اجعلك ترسمني .

ووجد كيربي انني لا اجهـل من هي « الموناليزا » . والحقيقة انني ما كنت لاعرف عنها شيئاً لولا راقصة تعرفت عليها صدفة ، كانت تلعب بدقة ومهارة ، وكان يعلو شفتيها ابتسامة مضحكة ، فاخبرتني انها ابدلت اسمها الذي كان « بياتريس » فجعلته « موناليزا » وشرحت لي قصة الموناليزا هذه ، وقالت عنها انها اليوم لوحة خالدة ومشهورة .

واخيراً قلت لكيربي :

– لن اعود إلى حديثي هذا مرة اخرى. القهوة جاهزة الآن .

– لي ، لا استطيع ان ارسمك ، او ان ارسم احداً غيرك ، كائناً من يكون .ابداً ، ابداً لانني لا اريد ان اكون « شؤماً » عليك .

– ماذا تعني ؟

– الواقع ، انني قتلت الفتـاة الاخيرة التي جلست الي لأرسمها .

وانتفضت عندئذ ، فانقلب عـلى اثر ذلك الإبريق ، واخذ الحليب يقطر من جوانب الغطاء. فقال كيربي انه ذاهب ليغسله ، ولكنه لم يفعل شيئاً ، بل ظل قابعاً حيث هو ، واخذ يقص علي كيف حصل له ذلك .

لقد كان رسم الوجوه صنعته ، وقد سبق له ان درس عن الفن شيئاً هنا وهناك ، وفي اوروبا ايضاً ، حتى بدأ الناس يتحدثون عنه كفنان . الى ان كانت الامسية التي شهدت آخر لوحة له ولم تشهد غيرها بعد ذلك . حدث هـذا منذ ثلاث سنوات : ما كاد يتم لوحة الفتاة ، حتى قتلت بعد لحظات .

اما كيف اتصور انا نفسي هذه الحادثة فاليكم القصة :

اراه قد انتصب امام لوحته تلك ، راضياً عن نفسه بعد ان انجز عمله ، ثم خيل اليه فجأة ان ثمة وجهاً آخر يبدو فيها . لم يكن من السهل عليه ان يدرك كنه ذلك الشيء من النظرة الاولى . ولكن ما كاد يكتشفه ، حتى اتضح له السر ، لقد كان هناك ما يشبه الجمجمة . ولم يكن ليشعر مطلقاً ان ذلك الشر سيقع هنا ، ولكنه رغم ذلك كان يراه على اللوحة امامه ، عند ذراع الفتاة المنحني حيث كانت تبدو « الجمجمة » ومن خلال طية يدها حيث تطل الحدقتان الواسعتان الفارغتان ومن خلال ثوبها حيث يظهر الحنك العظمي .

واخبر في كيربي انه تخطى الدرج عند ذاك كالمجنون ، ليصل الى الفتاة ، وكان عليه ان يدركها ، لأن الموت كان لها بالمرصاد ، قابعاً فوق كتفيها ، لا سيما وقد عرفت هي بذلك .

وقال لي اخيراً بصوت مخنوق :

– ما كنت ارغب ان اسرد عليك كل هـذا يا لي .

– وماذا حدث للفتاة ؟

– كان من عادتها ان تدخل بيتها مسرعـة ، من شارع ضيق . وهناك وجدتها وقد دق رأسها كما جاء في تقرير البوليس . وعـلى الارض وجدت محفظتها فارغة من المال . ويظهر انهـا كانت تريد ان تصرخ ، فاضطر المهاجم ان يلتقط شيئاً ثقيلا ، كالحجر مثلا ، ويمعج به جبهتها .

فقلت له :

– حادثة شنيعة ، وهي لا تنسجم وبعد ذلك الاحد.

ثم اضفت :

– وما هي علاقة كل هذا بما تفرضه عـلى نفسك ، فتمتنع عن تصوير الناس ؟

– لي ، هذا ما ليس في وسعك ان تدركيه ، اما انا فقد كنت اخط بريشتي نهاية تلك الفتاة .

– كان ذلك صدفة من الصدف ، فالجمجمة ظهرت عفواً في اللوحـة ، وانت لم تسع الى وضعها قصداً .

– ولكن كان هناك هاتف داخلي يدفعني ان اصنع ذلك ، وان اخط بيدي نهاية تلك الفتاة التي

كنت ارسمهـا ، فكيف اتأكد بان ذلك لن يتكرر ثانية ؟

*

ليس هناك ما هو اشد كرهاً عندي من نكهة القهوة وهي باردة ، ومع ذلك فقد شربت قهوتي وقلت :

– بف ، لا خطر علي انا من شعورك هذا .

– كفى ، لن نتحدث في الموضوع مطلقاً ..

وهكذا مضى ذلك النهار ، ولم نأت فيه على ذكر شيء . ولكن لم يطل بي الوقت حتى عدت الى مضايقته من جديد . فكل ما قاله عن القضية يبدو لي سخيفاً . انه فنان ، فنان يتنبأ له الجميع بمستقبل باهر ، فماذا كانت النتيجة ؟ لقد تهيأ له انه سيكون شؤماً على كل من يرسمه ، وهكذا اخذ يزن الأشياء بكثير من القلق . ما اسخف ما يتهيأ له ! انى لي بان اعيده الى الصواب ؟ اواه لو كان بامكاني ان اجلس امامه ليرسمني . ولكن مصيبتي انه يحبني ، ويخاف علي من نفسه ، فكيف اقنعه بالقبول ؟.

– لا ، لا اريد ان اخاطر بك .

هذا ما قاله ورددد . كان جامداً لا يتحرك ، فأوقعني جموده في عصبية احرت على اثرها يداي وهذا ما كان يصيبني عادة عندما اغضب ، او اصاب بشيء من الانفعال . وعندئذ سألته :

– هل تدري بماذا افكر ؟ انك رجل معتوه مختل . اسمع يا هذا ، قد يخرج بين وقت وآخر الى العالم شخص ما ، يباركه الله بلمسة لطيفة ، ويقول له : « هذا الى ان تكبر وتقوم برسالة ما ، الغناء مثلا او الرقص او التصوير »

وعدت ارتجف وكنت في حالة غضب شديد فناداني :

– لي !.

ولكنني تابعت حديثي :

– ان ما اصابني من انفعالات لا يعني شيئاً ، ولكن اذا ما كان الله قد اختارني الى مثل ذلك ، فسأكون جد فخورة بان اعمل بوحيه . لانني عندئذ لا ادع نفسي تخضع الى مثل تطيرك الابله وما تزعمه فيك من « شؤم » .

وتناول في الحال يدي الاثنتين وقد كانتـا ملتهبتين مرتجفتين ، وغمر كفي بوجهه واخـذ يقبلني ، ثم اطبـق اصابعي بشدة ليحجز بهـا القبل . ان احداً قبله لم يفعل معي شيئاً من ذلك .

وبعد ايام قليلة باشر العمل في لوحتي .

ليس من السهل ان يقبع الانسان جامداً لمدة طويلة ، كما كنت افعل ، وحتى دون ان يحرك رأسه . فسيحس بخدر موجع ، وبثقل في ذراعه او ربما في ساقه ايضاً . وانني متأكدة انني قد حفظت عن ظهر قلب شكل كل سنتمتر مربع من الحائط قبالتي .

وحتى اكون صريحة تماما ، اقول ، كم كان يسعدني دائماً ان اسمعه يتمتم : « ارتاحي يا لي ، هذا يكفي الآن » . ولم تكن سعادتي انني فقط سأتحرك بعد قليل ، انما السبب الاساسي ان كيربي نفسه سيعود الي من ذلك المكان البعيد الذي كان يضيع فيـه . لا اقدر ان اشرح ذلك بوضوح . ففي كل مرة جلس ليصور ، كان يغرق في ذاتـه ، وتأخذه مسحة من الانطواء على النفس اعرفها فيه جيداً ، منذ زمن بعيد ، منذ كنت التقي به على الدرج . وليس من السهل ان اتذكر كيف كنت اضغط على الحاجز وانـا اتبعه بعيني ورأسي ، ثم ادعو الله ان يقيه شر تلك الاطراقة المقدسة .

*

جاءت السيدة كيفر الى غرفتي اليوم من غير دعوة ، وقالت :

– انت تمضين وقتاً لا بأس به عند كيربي.

لم اكن سليطة ، حتى ان المجادلات كانت تزعجني وتقلب نفسي . ولكن مع ذلك قلت لها بسخرية لاذعة :

– لا شك بانك قد اصغيت الينا كثيراً من وراء الباب ، وارى نفسي مضطرة ان اكفيفيك الآن كل فضول ، فاعلمي اذن ان السبب الذي لأجله كنا ننقطع عن الحركة لمدة طويلة ، هو انني قد كلفت السيد كيربي ان يرسمني ، والظاهر انه لا يحب الثرثرة كثيراً وهو يعمل .

– اسمعي يا ابنتي ، الا تمسكين نفسك عن ركوب مثل هذه المخاطرة عنده ؟ انه رجل مختل ، وعقله ناقص .

– تقصدين ان فيه مساً من الجنون ؟

– اعني انك ايضاً ستكونين كذلك إذا سمحت له بمتابعة العمل حتى النهاية . عجلي وتخلصي منه يا لي ، فأنت فتاة ذكية ونبيهة ، تعرفين جيداً كيف تجدين مخرجا لنفسك .

– من اين عرفت انني ارغب بالإنفصال عنه يا سيدة ؟

– ربما كان علي ان اقص عليك ما اصـاب آخر فتاة كانت قد تصورت عنده !

– انني على علم بكل شيء ، وليس له اية علاقة بموتها .

– ان البوليس لم يجد القاتل بعد ، ولكن لي رأي في الموضوع .

ثم تقدمت مني وهي تلهث ، وكنت اتساءل كيف اسكتها وأضعها خارجاً :

– لقد خط لها بيده نهايتها .

فقلت في نفسي : « انها هي ايضاً تعرف ذلك. »

ثم اضافت ما بعث الذعر في نفسي :

– كنت اعلم ان عملها سيعود عليها بشر عظيم . دائماً صراخ ، دائماً عراك ، كانا كأنهما وحشان ، حتى انني اضطررت مرة ان اصعد اليهما ، لان الجيران كانوا قد تضايقوا منهما كثيراً ، فوصلت في الوقت الذي كانت الفتـاة تنزع فيـه باظافرها جانبا من خده ، وتولي هاربة بعد ذلك. ولكنها كانت تعود ، كانت دائما تعود اليه .

عندئذ اخذت ركبتاي تهتزان حتى اضطررت الى ان اجلس على حافة السرير . لماذا لم يقل لي ان تلك الفتاة كانت له اكثر من مجرد «موديل» ينقل عنه؟.. انني اعرف الآن كيف اصيب بذلك الجرح ، الجرح الذي تغطيه اللحية . وهكذا غار قلبي في صدري ، فقلت للسيدة كيفر :

– اخرجي حـالا ، لا اريـد ان اسمع خزعبلاتك ، اخرجي .

– انها تملأ صفحات طويلة ، لا سيما فيما يتعلق بليلة ذلك الاحد . فنانك هذا رجل شؤم ، هكذا يدعونه هنا ، وعندي في دفتري كل شيء عنه إذا كان يهمك ذلك .

وبعد النقاش الذي قام بيني وبين السيدة كيفر اخذت افكر اكثر فاكثر في تلك الفتاة المسكينة التي قتلت . وبقيت استعيد الحادثة في رأسي حتى تهيأ لي ذلك الإحساس الغريب بانني انا كنت تلك الفتاة . وان ذلك الذي كان قد جرى لها انما كان يحدث لي للمرة الثانية .

*

طلبت منـه كثيراً ان يريني اللوحة وهو يعمل فيها . لست اعلم كم من المرات ، وعلى الرغم من ذلك ، فلم يكن ليسمح لي مطلقـاً برؤيتها . كان يجب ان اراهـا ، لست اعلم لماذا ، ولم اعد احتمل اكثر مما احتملت ؛ وقد قال لي :

– سترينها عندما تتم . لا احب ان ترى لي لوحة غير ناجزة .

وقبل ان يتمكن من صدي ، كنت قد تركت المرتبة ، وتمركزت امام اللوحة .

عندئذ قال دون ان يبدو عليـه شيء من الانفعال :

– حسناً ، تأمليها جيداً ما دمت راغبة هذه

الرغبة الشديدة .

رأيت لوحة غير تامة لفتاة أخذت تشبهني ، ليس اكثر ، ورغم ذلك لم استطع ان ارفع نظري عنها ، وفجأة خطر لي ما كنت ابحث عنه . أين هي الجمجمة ؟ لقد ارتجفت بقوة ، وأخذت افتش عنها في لوحتي .

– لي !!

لقد تلفظ باسمي بكل هدوء . ولكن خيل إلي انه قد وضع اصبعيه في فمه ونفخ بكل قوة قرب اذني . فشعرت برأسي يكاد ينفجر .

– لي ، هل اخفتك انا ، لا اظن ، أليس كذلك ؟

في هذه اللحظة بالذات رأيت نفسي ابتعد عنه . كان يريد أن يمسك يدي ، فخطوت خطوة ناقصة ، افقدتني توازني ، بسبب كأس كانت موضوعة خلفي ، وهكذا سقطت .

رأيت وأنا منطرحة ارضاً ، ساقيه الطويلتين فوق رأسي ، فلم استطع الوقوف . وبقيت ازحف على الخشب لاهثة حتى اعترضني الحائط ، وعندئذ اسندت رأسي وأغمضت عيني ، وانتظرت حدوث شيء ما . ماذا كنت انتظر ؟ لست اعلم ولكنني انتظرت حدوث ذلك الشيء .

*

السكين اخذ يخز في اللوحة ، فبدا لي صوته وكأنه يمزق الغرفة كلها . لم ادرك بادئ ذي بدء ماذا كان يحدث ، ولكن عندما فتحت عيني رأيت كل شيء ، فتمارضت ... كان يضرب بيده دون انقطاع ، ممزقاً اللوحة تمزيقاً ، اللوحة نفسها التي كان يرسمها بيده ، ثم اخذ يعمل منها اشرطة ويبكي ، اجل يبكي بصمت .

وبعد برهة صرخت فيه ان يكف ، وتقدمت لامسك ذراعه . فأخذت يدي تتحرك معه . كنت اعلم جيداً ان حركتي هذه لن تبدل شيئاً من الموقف . أتبدل ام لم يتبدل ، فقد انتهى الأمر ، والتصقت به جيداً ، فتوقف ، وترك السكين يسقط على الأرض ، ثم اخذني بين ذراعيه وضمني ، ضمني ، وأخذنا بعد ذلك نبكي معاً :

– عفواً ، عفـواً ، (هكذا كنت اردد في اذنه) عفواً عفواً ...

– لن استطيع ان ارسمك يا لي ، هـذا مستحيل .

– سنبدأ من جديد ، هذه المرة ، وكل شيء سيسير على احسن ما يرام .

– لا . لا .

– ارحوك ، ارجوك ، انا اريد ذلك ، وإلا فلن اغفر لنفسي ابداً .

فتناول وجهي بين يديه الواسعتين ، ثم انحنى برأسه المكتنز علي وغمرني . اجل لقد ضمني وهو يقول :

– لي ، يجب الا تخافي مني .

وبعد وقت ، اي قبل ان اعود الى غرفتي قلت له :

– غداً سنبدأ من جديد ، أليس كذلك ؟

كنت اظنه سيقول لا . لكنه اجاب بهدوء وقد بدت عليه شبه ابتسامة غريبة ، اجل ، اجل سنبدأ من جديد . ولكنه كان يفكر بشيء آخر ، او هكذا بدا لي .

في المرة التالية تغير الحال كثيراً ، كان قد ادار وضع المقعد ، وجعلني قبالة حائط آخر انظر اليه . وركز السيبة في مكان بعيد ، ووضع ايضاً مرآة كبيرة خلفي ، فوق المدرج ، لانه كما قال يريد ان يرى فيها تموجات شعري من الخلف . وهذا شيء اعرفه . كنت اعرف ان شعري جميل ، ولكن من عادتي ان اعقده من الخلف ، وأرفعه الى فوق بمشبك ، اما هو فقد ارسله على كتفي حتى يستطيع رؤيته في المرآة . وقد وعدته هذه المرة بالا انظر في اللوحة قبل ان يتمها .

جلست امامه هذا النهار حتى ادركتنا الظلمة ، وكان علي ، كما هي العادة ، ان انبهه اليها ، حتى يتوقف عن العمل .

شيء واحد لم يكن ليتبدل فيه ، تلك المسحة الإنطوائية التي كان يغرق فيها عندما يجلس ليعمل . لم يكن يضحك او يتكلم ، وغالباً ما كان يحني رأسه كأنه يصغي الى شخص لا اراه انا ، شخص منتصب قربه تماماً . وكان يحصل له احياناً ان يتمتم بشفتيه دون ان يحدث ضجة ، فيخيل الي انه يحدث شخصاً لا استطيع انا ان اراه .

ومرة ابديت له ملاحظة :

– هل قلت شيئاً ؟

فظهر عليه انه يسعى جاهداً لكي يتذكر ، ثم اجاب : «كنت اقول انني احتاج الى ظل داكن اللون ، كنت احدث نفسي يا لي ، لا تتحركي» ثم يعود من جديد ، الى ما كان عليه من غيبوبة. وهكذا كنت دائماً افقده .

*

اصبح من عادة السيدة كيفر ان تترك بابها ، في الطابق الارضي ، مفتوحاً . وكنت كلما عدت الى غرفتي اراها تجلس في مقعد كبير ازرق اللون وتتبعني بنظراتها وانا اصعد الدرج . ان مثل هذه التصرفات منها كانت تتعبني احياناً . لم اعد اشعر بانني مرتاحة ، والآن احس بتقلص حول عيني ، وبالم حاد في رأسي وكأني به بدأ ينكمش .

تعلقت يوماً بالحاجز ، على الدرج ، وكنت مصممة ان اقوم بنصف دورة ، لأوجه اليها دفعة واحدة ، ما كنت اتمنى احياناً ان القيه في وجه هذه العجوز الشمطاء حتى لا تتدخل بعد الآن بما لا يعنيها .

وقفت العجوز حالما دخلت عليها ، ثم اقفلت الباب واخذت تحرك شفتيها على بعد سنتمترين من رأسي . كانت كأنها خائفة ان يسمعها احد غيري :

– كنت اعرف جيداً انك ستأتين الي يوماً ، لتطلبي الدفتر مني. وستغيرين رأيك عندما تنتهين من قراءته . انك فتاة طيبة ، ولا اريد ان يصيبك كيربي بمكروه .

ثم رفعت المسند عن المقعد وتناولت دفتراً قدمته لي قائلة :

– يبتديء بمذكرات شخصية وصور زفاف ، وحوادث مثل هذه ، ولكن وضعت لك اشارات على الصفحات التي تهمك . خذيه واقرأيه بعناية.

لم الق عليه اية نظرة في اليومين الأولين ، ولا اردت حتى ان انظر اليه ، ولكني غداة اليوم التالي ، بينما كانت المدينة على وشك النهوض ، دفعت بمقعدي الى النافذة وفتحت دفتر السيدة كيفر . فسقط منه على ركبتي بعض زهورها القديمة . ولعلها من بقايا زهور الزفاف . وإذا كان هناك ما ابغضه ، فهي الزهور الجافة .

والظاهر ان اهم ما واجهته في حياتها ، تلك الحوادث التي وقع اكثرها في بيتها هذا بالذات .

من اجل ذلك كانت تحتفظ بكل قصاصات الجرائد الخاصة بها ، وأهمها القسيمة الملونة منها ، خلف رسوم ايام الآحاد الهزلية .

كم يحبون تسقط مثل هذه الأخبار ، الأخبار الجنسية والدموية ! ففي هذه الحادثة مثلا كانوا قد جعلوا من الحبة قبة . اي انهم اختاروا لها من العناوين اضخمها « الموت كان منتصباً قربها » ثم اتبعوا العنوان برسم فتاة جميلة عارية الساقين جالسة امام رجل فنان قصدوا ابرازه هكذا قصداً ، وإلى جانبه شبح الموت ، يحمل في الوقت نفسه سكيناً ، ويرتدي معطفاً اسود له قبعة .

ان اول ما خطر لي الآن تلك الغيبوبة التي كان يغرق فيها كيربي دائماً كلما جلس ليصور ، فينصت الى شيء ما ، لم اكن لأستطيع رؤيته . وعندئذ اصابتني قشعريرة باردة ، فشددت قميصي على جسدي .

كانت هذه القصة التي اقرأها قريبة الشبه بما كان قد حدثني به الفنان كيربي ، والسيدة كيفر ايضاً . ولكن هنا في هذه الصفحة من الدفتر بعض التفاصيل التي تتعلق بحبة للفتاة . فتابعت القراءة :

« كانت قد قتلت بوحشية ، وأصبح كيربي على اثر ذلك نصف مجنون ، من شدة الحزن ، وقلقاً دائماً . فلو كان صحيحاً ، كما يقال : ان كل انسان يقتل حبه بيده ، فربما ، وبطريقة عفوية ، كان هو نفسه القاتل ».

ان كل ما في اسلوبها لم يكن ليشعر غيري من القراء بأكثر من قشعريرة خفيفة ، ولكني اعترف بانها صعقني بقساوة . وفي مكان ما من القطعة كان قد كتب اسم الرجل الذي اشترى اللوحة : « هاريسون فلب » الذي يسكن في « البارك » .

كانت الشمس قد ارتفعت عالياً عندما اطبقت الدفتر . وبعد الظهر جلست الى كيربي ليتسنى له متابعة الرسم . ولكنني شعرت بانفعال شديد إذ ان لحيته كانت قد اختفت . فقال لي :

– اما قلت مرة انني ابدو في لحيتي على شيء من الغموض ، فلهذا حلقتها .

لقد اعاد اليه ذلك عشر سنوات من شبابه ، واظهره اجمل بكثير مما كان عليه . ولكن الجرح بدا واضحاً. لقد فعل ذلك ليشعرني ببعض السرور ، فسأسعى انا اذن الى ان اظهر مرتاحة معه ، وعلى كل حال لم اكن اشعر بانه غريب عني .

كنت اجلس « وضعي » على المدرج ، واخذت افكر ، ولم اكف عن التخيل بانه هكذا بلا لحية ، سيصبح قريب الشبه بذاك الذي كانت تجلس اليه الفتاة المسكينة التي قتلت ، والتي لا بد انها كانت تجلس حيث اجلس انا . واصبح عندي ذلك الشعور الغريب بان الحادثة نفسها كانت تتكرر مرة ثانية بشخصي .

وعندئذ قلت له :

– اشعر بالم في رأسي ، فلا قدرة لي على اكثر من هذا ، اليوم .

كنت اقول الحقيقة ، فرأسي كاد يتصدع ، ولا اعلم كيف تكلمت ، وانا اتأمل الجرح في خده . كان فظيعاً ، يتلون ما بين الابيض والبنفسجي . وعندئذ قلت :

– لماذا لم تحدثني مطلقاً عن حبك للفتاة ؟

– من قال لك ذلك ؟

– السيدة كيفر .

ولم استطع ان اصارحه بامر الدفتر .

– ان هذا اذن سبب تغيرك يا لي ، لا ، لا ، ما احببتها قط ، كنت امقتها ، كنت اكرهها لدرجة انني تمنيت لها الموت ، دون ان اشعر ، مراراً وتكراراً . ولم احب احداً غيرك .

كان يقول ذلك ليشجعني ، ولكنني تذكرت ايضاً ما قاله الدفتر ، بان كل رجل يقتل حبه بيديه . كنت اهم بالخروج من غرفته لاستنشق الهواء ، فاقترب مني ليساعدني على تجاوز المدرج حيث كنت اجلس ليرسمني . كانت هذه المرة الاولى التي يفعل فيها ذلك معي ، فخيل الي في الحال انني انفصلت عن نفسي ، وانني اقف الآن على بعد خطوتين من جسدي ، لارى عن بعد كيف يلفني كيربي بيديه ليساعدني في نزولي عن المدرج . اردت ان اصرخ لانبه الفتاة الى الخطر المحدق بها ، ولكن بعد قليل عدت الى صوابي ووجدت انني انا نفسي كنت تلك الفتاة التي امسك بها . كان رأسه قريباً من رأسي. وعيناه في ظلمة كثيفة ، بحيث ان احداً لا يعرف أهما منزوعتان ام غائرتان .

اجهدت نفسي بان اكون طبيعية في حديثي معه ، فقلت له بهدوء انني يجب ان اكون في عملي بعد قليل . فقال :

– صحيح ؟

وتركني هكذا بكل سهولة . اما انفلاسي فلم اشعر بانني قد استعدتها إلا في الشارع .

تأخرت عن اول مشهد في النادي هذا المساء ، فبدلا من ان اقوم بدوري فيه ، ذهبت افتش في الدليل عن رقم « هارسون فلب » الرجل الذي اشترى اللوحة الاخيرة ، ثم تلفنت له . لم احدثه بشيء ذي بال . قلت له فقط بانني قرأت اسمه في الجريدة ، ولاسباب خاصة ارغب في رؤية اللوحة التي اشتراها . وكان لطيفاً للغاية ، هذا إذا اخذنا بعين الإعتبار عدم معرفته

لي، أو معرفة شيء عن قضيتي . وقد طلب مني ان احضر الى بيته .

وكانت السيدة « فلب » متوسطة العمر ، تستعمل الروائح العطرية الجيدة ، ولم تفتني نظرتها المريبة الى زوجها عندما اعلنت لها ان الفنان نفسه صاحب اللوحة كان يصورني في ذلك الوقت .

فسألني الزوج في الحال :

– وهل تعرفين كيربي هذا ؟

كنت انتظر مثل هذا السؤال ، فاكتفيت بان اجبته :

– نحن نسكن في بناية واحدة .

ثم سألته بعد ذلك : ولوحته ؟ أهي ما تزال عندك ؟

وقادني الى غرفة المكتبة . اعتقد انها هي ، رأيتها معلقة على الحائط فوق الموقد . كانت النار مشتعلة ، ونورها ينعكس عليها ، فيعطيها حياة وحركة . ولبرهة طويلة لم استطع ان اجد ما كنت ابحث عنه فيها . ولكن فجأة ظهر لي ذلك الشيء ، هناك حيث ذراع الفتاة تنثني الى الامام. وفي انحناءة يدها ظهرت الحدقتان غائرتين . وفي طيات ثوبها كانت الجمجمة . الجمجمة بالذات . وعندئذ سمعت السيد فلب يسألني :

– ألست مريضة يا آنسة لي ؟

– قل لي : أوتعتقد ان مثل هذا الذي اراه قد يكون عرضياً ؟

– وهل تريدين رأيي بصراحة ؟

– اجل .

– لا اظن كذلك ، اراه قد وضع عمداً ، بعناية وتصميم .

هذا ما حدث لي البارحة ، اما اليوم فقد تركت عملي في المربع، وذهبت لمقابلة « لو » ، وكيل اعمالي ، لأقول له انني يجب ان اترك نيويورك .

*

كانت الساعة السادسة عندما عادت « لي فراي » الى بيت حجارته دكناء اللون ، في الشارع الغربي. كانت الرسائل كثيرة في صندوق البريد ، ولكنها لم تهتم لها فكل ما كان يهمها انها ستعد حوائجها وتعود الى المحطة سريعاً .

– مس « فراي » !

جمدت لي فراي مكانها على السلم عندما سمعت العجوز تناديها .

–مس فراي !هل قرأت ما كنت قد اعطيتك اياه ؟

وكان صوتها يشبه الصفير . اما لي فقد اجابتها : « لا . لا » وتابعت تسلقها ، ثم تخطت السلم والممشى بسرعة .

لقد تألمت وهي تدير المفتاح في القفل ، لأن يديها كانتا ترتجفان وكانتا في لون النار. فأخذت تبكي وتردد بصوت مسموع :

– يداي يداي ، ما اعجبها ، ما أضعفها ! لماذا تتصرفان هكذا دائماً عند ما أكون على شيء من الإنفعال ؟

واخيراً قدرت لي ان تفتح الباب ، وفي الربع الساعة الاولى ،كانت قدوضعت ثياب الرقص في حقيبتها . كانت اعصابها متوترة ، ولم تكن لترتاح الا قليلا من وقت الى آخر ، لتتأمل الثياب ، وتنظر الى النور الذي يشع ويتراقص على قصبها الفضي والمذهب .

كانت الدمية ذات الرداء المخملي الأسود والفرو الاصلي تبتسم على الطاولة. انها الدمية الوحيدة التي كانت قد اهديت اليها ،فاخذت تحدثها كما لو كان بامكانها ان تفهمها . كانت لي تعلم جيداً انها لا تستطيع أن تفهم ، لانها لم تكن اكثر من جسد ، جسد لا حياة فيه، يرتدي احسن الأثواب ويحمل وجه لي الجميل . وقد صرخت لي عندئذ مذعورة ، ثم أخذت الدمية ورمتها في درج مفتوح واقفلت عليها بشدة . ثم عادت الى عملها الفوضوي ، ولكن دون أن يذهب عن ذهنها ان هناك في الدرج المظلم المنقطع عن الهواء ، لعبة ميتة تشبهها من جميع الوجوه .

وطرق باب مس فراي بهدوء ، وكانت تعرف الطارق ،ولكنها مع ذلك سألت :

– من هنا ؟

واذا بها ترى الغلق يدور ثم ينفتح الباب بعد ذلك . وهذا جد طبيعي، كما فكرت لي. ان الباب ما كان لينفتح قبل ان يدار الغلق ، اليس كذلك ؟ واخيراً سألها الداخل :

– لي ، لماذا تعدين حقائبك ؟

فوجدت نفسها ترد عليه :

– قابلت اليوم وكيل اعمالي. فاذا به قد ربطني بعمل آخر خارج المدينة ،وسأعمل هناك.

– أوه ... ومتى تبدئين ؟

– الاثنين في الثامنة مساء .

قالت ذلك ، وعضت على شفتها، ولكن فاتها الوقت لتستدرك الأمر فاجابته بالنفي .

– اسمعي اذن، اللوحة ستتم هذه الليلة. واحب ان تريها ، الا تبقين ؟

فأجابته « نعم » بصوت منخفض . لانها كانت تخاف كثيراً أن تصرخ في وجه كيربي بكلمة لا .

وتهيأ لها عندئذ انها تقف على خطوتين من ذاتها الى الوراء . وانها تتأمل ذاتها عن بعد .كانت تراها حزينة، يكاد حزنها يدفعها الى البكاء ، ثم رأت الرجل الذي يسكن فوقها يضع يده الكبيرة على ذراع لي ، ويقودها خارج الغرفة ، فتأملتها وقالت « مسكينة هي ... من يستطيع الآن ان يسعفها ؟ » .

وفي مرسمه ، اجلس كيربي الفتاة لي فوق المدرج للمرة الأخيرة ، قائلا لها :

يصدر قريباً

الجزء الاول من :

آراء في الشعر والقصة

الكتاب الوحيد الذي يجلو مختلف التيارات الفكرية المتضاربة في الأدب العراقي المعاصر ، على صعيد واحد .

شارك فيه : محمد مهدي الجواهري ، رضا الشبيبي ، بدر السياب ، كاظم جواد، جبرا إبراهيم جبرا ، جعفر الخليلي، عبد الوهاب البياتي ، فؤاد التكرلي ، بلند الحيدري ، عبد المجيد لطفي ، علي الحلي ، محمد الروزنامجي ، سلمى الخضراء الجيوسي ،سلامة حجاوي ، محمود الحبوبي ، ماهرة النقشبندي... وغيرهم ...

عني باعداده ونشره

خضر الولي

– بامكاني أن انهي عملي دونك ، وما كنت دائماً بحاجة اليك . وها انا الآن اجعلك بعيدة عن اللوحة، حتى امنع عليك رؤيتها قبل انهائها، وعندي اسبابي الخاصة لأن افعل ذلك.

كانت الغرفة هادئة ساكنة، مـاعدا تكتكة رقاص الساعة . ومن الغريب ان للي ما سمعتها قط قبل الان . الدقات كانت بطيئة وثقيلة ، تحسها خارجة من الأعماق ، وسيمضي عليها وقت غير قليل حتى تنتبه انه لم يكن هناك رقاص يدق ، انما كانت تسمع دقات قلبها بالذات .

وبعد برهة طويلة، ترك كيربي ريشته الحادة وقال : « للي . تعالي ... » ثم صرخ بها بحدة « للي للي ... » وارتمى عليهـا بسرعة غريبة فتساءلت للي : « ماذا صنع بردائه الأسود وقبعته اللذين كانت تراه يلبسها منذ لحظة .» انها على استعداد لأن تقسم انه كان يضع عليه رداء اسود وقبعة.

ارتمى كيربي عليها بقوة ، وضغط باظافره على ذراعها، وحملها بسرعة الى الجهة المقابلة من الغرفة . فدارت هي على نفسها حالا ، برأس ضائع. تريدان تعلم ماذا يجري حولها . وها هي تشاهد المرآة الكبيرة التي كانت معلقة خلفها تماماً تهتز وتهتز ثم تسقط وتتحطم الى مئات من القطع الزجاجية.

وعندئذ قال كيربي وهو يلهث.

– رأيتك تصطدمين بها وانت تقفين ، للي ، لقد كادت تقتلك

– انني اراهن أن هناك ما يقارب تعاسة مليون سنة تجمعت كلها في وعملت معي على تحطيم هذه المرآة الكبيرة .

– ليس معك ، انظري للي، انظري اللوحة .

– لا ، لا اريد .

وكان تحديها له بقولها لا ، قد اراحها قليلا، فاخذت تكرر اللفظة . كانت تعرف انها ستجد في قلب اللوحة وجهين مخيفين .

– للي ! انظري الى اللوحة ، اريد ان تنظري اليها ، لا تخافي .

ورفعت وجهها اليه، ولكن الحاجبين كانا يهتزان .

وكان كيربي يحدثها ، ولكنها لم تكن تفهم عليه ، تماماً كما يحدث لها احياناً وهي في السينما ، عندما يرتج الصوت . وأخيراً ابعدت رأسها عنه ، ونظرت الى الأرض . كان المدرج الذي كانت تجلس عليه مفروشاً بقطع المرآة اللامعة.

ففكرت انها لو كان بامكانها ان تجد وسيلة لتعبئتها في خيط ، لاستطاعت ان تزين بها ثوبها وتجعله اكثر الأثواب لمعاناً على الأطلاق ... وعندئذ صرخت :

– ماما ، ماما ! ! انا خائفة .

ثم عادت الى نفسها . انه من المضحك ان تستنجد دائماً بامها وهي لا تتذكرها . ثم أخذت تضحك ، اجل كانت تضحك عندما اخذهـا كيربي بين يديه ليقول لها :

– للي كفى . كفى، ثم اغرق وجهه في ذراعها المتوترة ، وبقي كذلك ...

*

على حافة السيبة التي تحمل اللوحة ، رأت للي سكيناً صغيراً حاداً كان يستعمله كيربي للتصوير . ورأت نفسها تتأمل الفتاة الثانية التي تشبهها تماماً ، بل انها هي . واخيراً امسكت بشدة مقبض السكين ورفعته عالياً جداً ، فوق ظهر كيربي . ولكنها توقفت قليلا لتخاطب نفسها :

– هذا ما يجب ان تفعليه، فانت فتـاة طيبة ، ولا اريد ان يصيبك منه اي مكروه، وقد يكون في حديثي هذا بعض ما كانت تقوله السيدة كيفر ، منذ زمن ، فلا اهمية لذلك الآن ، لا شيء اثمن من الحيـاة ، وسأحفظ نفسي منه ....

ثم خاطبت ذاتها الثانية ايضاً :

– افعلي ، لا تخافي يا للي .

وهكذا دخل السكين الحاد جسد الفنان كيربي بهدوء، وظل مقبضه في يد للي الى ان احست بمادة لزجة تسيل عليها ، وعندئذ تركت السكين .

رأت نفسها مأخوذة، مذعورة ، وتذكرت ذلك الكلب المسكين الذي اكل قطعة اللحم ، منـذ زمن بعيد ، دون ان يعلم انهـا كانت مسمومة، ولاحظت وجه الشبه بينها وبينه .

اخيراً تراخت على نفسها بثقل، ثم سقطت . لم تعد تشعر بشيء غير انها كانت مبللة بالعرق ، وصوت كيربي يرن في اذنها :

– للي للي، الم اقل لك كثيراً أن هذا سيكون شؤماً علينا ؟

فقالت للي في نفسها :

– ولكن لست انا على الأقل ذلك الشخص الذي يموت .

ثم اقتربت من اللوحة لتنظر اليها !

*

... وهناك وجدت للي بعد مدة ، جالسة امام اللوحة. كانت تضع رأس كيربي على حضنها ، بين يديها ، وتهدهده كالطفل. هكذا وجدوها ، تغني له اغاني رقيقـة ليغفو . وعـلى المدرج حولها قطع المرآة المحطمة .

اما اللوحة فلم تكن تحمل صورتها هي ، بل صورة الفنان بالذات ، وجهه هو .

ترجمة شفيق الفقيه